مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

العدد الرابع عشر
1997

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1427 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1997 أفرنجي

عوامل نشأة البحرية المغربية الحديثة وتطورها
طرابلس - تونس - الجزائر - مراكش

أ. محمد سعيد الطويل
كلية الآداب - جامعة السابع من أبريل

أولاً: عوامل نشأة البحرية المغربية الحديثة خلال القرن 16 ف أو م:

لقد كان البحر الأبيض المتوسط مهدالحضارات القديمة، ومن أهم البحار التي ارتادها الإنسان منذ القدم، فقد مارست أغلب الشعوب المتوسطية ركوب البحر، فالإغريق بحكم موقعهم الجغرافي الممتاز وطبيعة شواطىء بلدهم الجزرية، كانوا مؤهلين لركوب البحر وكسب عيشهم من خلاله بالوسائل المختلفة، ولعل هذا ما جعل مونتسكيو يؤكد في كتابه روح الشرائع أن «. . . جميع الأغارقة الأولين من القراصين، ومن المحتمل أن مينوس الذي كانت له إمبراطورية البحر لم ينل غير أعظم فوز في قطع الطرق»[1] وقد كان الفينيقيون

(1) مونتسكيو روح الشرائع: تعريب عادل زعيتر، دار المعارف، مصر، د.ت، ج2 ص41.

هم أعداءهم الطبيعيين فهم أول الشعوب المتوسطية المحتكرة للتجارة بهذا البحر. وقد أعطت المنافسة على البحر بين الإغريق والفنيقيين بداية الصراع بين الشرق والغرب في المجال البحري، ويمكن النظر لفترة الحروب البونية (264ـ 146ق.م) الطويلة التي دارت بين قرطاجة وروما من هذا الباب وبعد انهيار قرطاجة سنة (146ق.م) سيطر الرومان سيطرة كاملة على هذا البحر لعدة قرون، حتى جاء الإسلام واستطاع الفاتحون العرب تحرير بلاد الشام ومصر وشمال إفريقية من الحكم البيزنطي، فوجدوا أنفسهم أمام بيئة جديدة لم يألفوها من قبل نظراً لطبيعتهم البدوية، ولهذا أرسل الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص واليه على مصر يسأله عن كنه البحر، فأجابه عمرو بهذه الكلمات «إنّ البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف، دود على عود»[2] ونتيجة لهذا الوصف، بالإضافة إلى النهاية المحزنة التي آلت إليها حملة علقمة المدلجي البحرية على الحبشة سنة (26هـ/ 646م)[3] منع عمر بن الخطاب على المسلمين المخاطرة بأنفسهم في ركوب البحر، غير أن هذا المنع لم يدم طويلاً، حيث أذن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان للمسلمين بركوب البحر لغرض الجهاد في سبيل الله، على الرغم من عدم توفر الأطر الفنية اللازمة بين صفوفهم في هذا المجال أول الأمر، إلا أنهم اعتمدوا على سكان الشواطىء الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط في إعداد وتجهيز لوازم ركوب البحر وخوض غماره، حتى سيطروا على أغلب شواطئه «وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل ميورقه ومنورقة ويابسه وسردينيا وصقلية وقوصره ومالطه واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج»[4].

وهكذا أعاد العرب إلى الشرق ما فقده خلال عهود طويلة من هيبة ومجد وحضارة، وقد وصف أرشيبالد لويس (ARCHIBALD LEWIS) انتصار العرب

---

(2) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، دار العودة، بيروت لبنان، د.ت، ص ص 199ـ 200.

(3) ابن الأثير: محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ط3 (1980م)، ج2، ص298.

(4) ابن خلدون: المقدمة مصدر مشار إليه، ص200.

على الروم وسيطرتهم على البحر المتوسط بقوله: «...وانقلب انتصار الإسكندر على دارا، وانتصار روما على هانيبال، وانتصار أورليان على الزباء، ونبذ الشرق الحضارة الغربية التي فرضت عليه قسراً، وأشاح بوجهه عنها وبدأ عصر الإسلام في دنيا البحر المتوسط»[5] وقد بلغت البحرية الإسلامية ذروة مجدها خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين حيث بلغ أسطول الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر مائتي مركب، وكذلك أسطول إفريقية[6].

والحقيقة أن البحر المتوسط بدأ يشهد مع نهاية القرن العاشر وحلول القرن الحادي عشر الميلادي تزايداً ملحوظاً في النفوذ المسيحي على حساب الحضور الإسلامي عموماً، وبدأ التدني في النشاط البحري الإسلامي يتضح يوماً بعد يوم، وخاصة بعد فقدان جزر البحر المتوسط مثل صقلية ومالطه، بل أصبح النصارى يهددون السواحل الإفريقية، فاحتل روجار النورماني طرابلس وقابس وصفاقس وفرض عليهم الجزية[7]، وإن لم يدم هذا الاحتلال طويلاً، إلا أنه كان يرسم لنا مقدمات الحروب الصليبية التي بدأت في الجبهة الأندلسية، ثم انطلقت إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط، ثم امتدت إلى المسلمين في الشرق، ولا يمكن تفسير ما تقدم إلا على ضوء التفكك السياسي الإسلامي وتدهور النشاط البحري وانهياره، فهو مرتبط أشد الارتباط بالعوامل السياسية والاقتصادية للدولة، رغم كل الجهود التي بذلها الموحدون ـ وإن استطاعوا أن يوقفوه مدة تقارب من نصف قرن ـ إلا أنهم لم ينجحوا في القضاء عليه نهائياً، حيث تعتبر سنة (645هـ/ 1247م) في نظر بعض الباحثين[8] المهتمين بالنشاط البحري الإسلامي هي بداية النهاية للبحرية الموحدية، ثم سقوط الدولة وأفول نجمها إلى الأبد سنة (673هـ/ 1275م).

---

(5) لويس أرشيبالد: القرى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، تعريب أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص78.

(6) ابن خلدون: المقدمة، مصدر مشار إليه ص 200.

(7) نفسه ص 201.

(8) عمار: عياد المبروك، البحرية في عهد الموحدين، رسالة ماجستير، إشراف د. أمين الـ... مقدمة إلى قسم التاريخ جامعة الفاتح، 1991م مجازه ولم تنشر ص 137.

وبذلك طويت صفحة من أنصع صفحات تاريخ المغرب، وفقد قوة سياسية استطاعت توحيد جهوده تحت راية واحدة هابها الأعداء وشدت من أزر الأشقاء في الأندلس ردحاً من الزمن، وبسقوطها انقسم المغرب إلى ثلاث دويلات هي بنو حفص في المغرب الأدنى (طرابلس وتونس) وبنو عبد الواد في المغرب الأوسط والمرينيون في المغرب الأقصى، وبظهور هذه الكيانات السياسية المتناحرة فيما بينها تحولت الثغور الإسلامية في المغرب من الهجوم إلى الدفاع، وأصبح الرباط هو السمة الأولى للجهاد، ولعل هذا ما يفسر كثرة الرباطات على طول الساحل المغربي من سبته حتى الإسكندرية، نتيجة لتزايد الأخطار المحدقة بهذا الساحل، وبالتأكيد إنها لم تشيد على الروابي المشرفة على الشواطىء لو لم يكن الخطر حقيقياً... فكانت الرباطات تؤلف سوراً دفاعياً متيناً ونظاماً دقيقاً وكان عدد المرابطين كثيراً»[9].

وهكذا ارتبطت فكرة الرباط بهذا العمل الجليل واستمرت على هذا المنوال حتى العهود التالية، حيث نجد صاحب كتاب الإشارات يشير إلى بعض مزارات المرابطين في طرابلس، ويربطه بكثرة ظهور النصارى في هذه المناطق[10]، التي عادة ما تكون مرافىء طبيعية على الشواطىء، ويسهل فيها النزول إلى البر ونهب المدن والقرى الساحلية، وقد حدد بعض الفقهاء المغاربه هذه الأماكن وفضل المرابطين فيها، حيث جاء في الفتاوى الكاملية في الحوادث الطرابلسية للشيخ محمد كامل بن مصطفى الطرابلسي قوله: «من توابع الجهاد الرباط، وهو الإقامة في مكان ليس وراءه إسلام...»[11].

وإذا كان هذا هو حال الشواطىء المغربية، فإن حال تجارتها البحرية كان

---

(9) شعيرة، محمد عبد الهادي، الرباطات الساحلية الليبية، من أبحاث مؤتمر ليبيا في التاريخ، الجامعة الليبية، كلية الآداب بنغازي، من 16ـ 23 مارس 1968م، ص 235ـ 247.

(10) التاجوري. عبدالسلام بن عثمان، الإشارات لما في طرابلس من مزارات، مكتبة النجاح، د.ت. ص130.

(11) محمود الشيخ محمد كامل بن مصطفى الطرابلسي، الفتاوى الكاملية في الحوادث الطرابلسية على مذهب أبي حنيفة النعمان، النسخة من إنشاء سالم بن المبروك السعودي سنة (1313هـ/ 1895م) دار الكتب الوطنية تونس ص48.

أسوأ من ذلك بكثير، وتؤكد بعض الوثائق التي ترجع إلى تلك الحقبة أي إلى بداية القرن الرابع عشر الميلادي، أن سفن النصارى كانت تعكر صفو التجارة البحرية وسلامة المسلمين[12].

وعلى أي حال إن هذه الأوضاع وغيرها تعكس بصورة واضحة مدى التفوق الذي كان يتمتع به النصارى عموماً والإسبانيون بصفة خاصة، ذلك التفوق الذي بلغ ذروته في النصف الثاني من القرن الخامس عشر باتحاد مملكتي أرغون وقشتاله، واستيلائهم على غرناطه سنة (898هـ/ 1492م) آخر معاقل المسلمين في الأندلس، وبذلك فتح الباب على مصراعيه أمام الإسبان لمواصلة هجماتهم على المدن المغربية من المحيط حتى طرابلس، يدفعهم إلى ذلك حقد ديني موروث ورغبة جامحة في التوسع والتنصير، ويقول المؤرخ كات «. . . لم يكن للإسبان من هم إلا نقل الحرب إلى إفريقية بعد أن كانت نفس البلاد الإسبانية مسرحاً لهذه الحرب طيلة قرون، وإرغام العرب من أهل إفريقية على اعتناق دين المسيح بواسطة السلاح»[13] كما وصف (الراهب خمينس XIMENES) أسقف طليطلة بأنه «أول من فكر في إنقاذ شمال إفريقية من الوحشية الإسلامية لكي تنتصر فيها المسيحية والحضارة»[14].

وهكذا توفر الحماس الشعبي والجماهيري اللازم للحركة الصليبية الجديدة واستغلال هذا الحماس في مطاردة المسلمين والقضاء عليهم، عملاً بوصية الملكة إيزابيلا، التي كانت تأمل لو يطيل الله في عمرها حتى تحرير إفريقية من سيطرة المسلمين[15]. ولم يكن زوجها الملك فرديناند (FERDINAND) ولا البابوية في روما أقل حماساً منها لهذا العمل الديني البحث في ظاهره الذي كان يتخذ شعاراً له الإنجيل بيد والسيف بيد، بيد أن هذا

---

(12) سعيدان. عمر، علائق الحفصيين ببلاط أراغون، مؤسسة سعيدان للطباعة سوسه تونس (1985م) ص 58ـ 61.

(13) نقلاً عن المدني، أحمد توفيق ـ حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ـ د.ت ص82.

(14) نفسه ص82.

(15) نفسه ص80.

لم يكن في الواقع هو السبب الحقيقي، بل هناك أسباب أخرى سياسية واقتصادية تقف وراءه، منها على سبيل المثال الرغبة في السيطرة على أوربا معنوياً تحت ستار الدين، والوقوف في وجه خصم إسبانيا العنيد فرانسوا الأول (FRANCOIS. LER) (1515 ـ 1547م) ملك فرنسا، وأخذ زمام المبادرة في السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط الذي بدأ يشهد ظهور الأتراك المسلمين، ومن العوامل الاقتصادية محاولة إيجاد بديل للاقتصاد الإسباني المنهار، بعد طرد المسلمين، والحصول على موارد اقتصادية جديدة من خلال السيطرة على المغرب والوصول من خلاله إلى وسط إفريقية، وقد أكد ذلك الفيلسوف السياسي المعاصر لفرديناند ماكيافيللي (MACHIAVELLI) (1469 ـ 1527م)[16] حيث قال: «. . .وقد كان دائماً يستغل الدين ذريعة ليقوم بمشاريع أعظم. . . وتستر بالتقوى لإخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم، وبمثل هذه الذريعة غزا إفريقية. . والبندقية. . . وفرنسا»[17].

وقد أسهمت تلك العوامل مجتمعة، إلى جانب حالة الضعف والتمزق التي كان يعانيها المغرب في وقوعه تحت السيطرة الإسبانية، فالغلبة تكون من نصيب صاحب الأساطيل القوية التي هي جزء من قوة الدولة، والقادر على إعداد السفن البحرية وتجهيزها، فالبحرية والسياسية والتجارة تكمل كل واحدة الأخرى، وأن يكون للحفصين ذلك وهم في صراع دائم، ليس مع جيرانهم في المغرب الأوسط فحسب بل حتى بين الدولتين الحفصيتين المتنازعتين بتونس وبجاية، فتلك الصراعات كانت منهكه عسكرياً ومالياً، وأدت إلى إهمال الأسطول أحد الدعائم الأساسية التي كان يعتمد عليها المغرب خلال العصور الوسطى في محاربة أعدائه النصارى.

---

(16) ماكيافيلي: هو الفيلسوف الإيطالي الذي نشأ في فلورنسه وصاحب كتاب الأمير في السياسية وله نشاط سياسي وثقافي واسع راجع البطريق، د. عبد الحميد ونوار، د. عبد العزيز: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية، بيروت لبنان د.ت. ص 40ـ 42.

(17) نقلاً عن عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4 ص350.

وحتى نكون أكثر واقعية في نظرتنا إلى الصراع الدائر في مياه البحر المتوسط في هذه الفترة، الذي لم يكن وليد هذه اللحظة بقدر ما هو مرحلة من مراحل الصراع الطويل والمرير بين الشرق والغرب في البر والبحر، مع ملاحظة الفرق الشاسع بين معاملة المسلمين المنتصرين في العصور الوسطى، وما كانوا يتحلون به من تسامح ديني، على الرغم من النزعة الدينية التي كانت تسيطر عليهم هم أيضاً، والتي تزايدت حدتها في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين على السواحل والمراكب المسيحية، انطلاقاً من صقلية ومالطه وسردينيا وكورسيكا وسائر الجزائر الشرقية جزر البالیار (BLAERAES) في الحوض الغربي للبحر المتوسط، التي كان يقابلها في الشرق جزيرة إقريطش (كريت) التي اعتبرت مركزاً للنشاط البحري الإسلامي في شرق البحر المتوسط، وكيف عوملوا وهم منهزمون منسحبون فيما بعد، حيث أصبحت هذه الجزر منطلقاً للمراكب المسيحية في نهاية العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث، وخصوصاً في الأندلس، حيث تعرضوا إلى مصادرة أموالهم وتعميد أبنائهم وهتك أعراضهم، وقد تركت لنا (مراثي الأندلس)[18] وصفاً دقيقاً لتلك الحالة البائسة التي وصل إليها مسلمو الأندلس، ومن بين تلك المراثي قصيدة الشاعر ابن الطيب أبو البقاء الرندي التي جاء في أبياتها الأخيرة:

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة ما رأتها الشمس إذ برزت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

كما وصفت الرواية الإسلامية تلك النهاية المؤلمة بقولها: «وانطفا في

(18) لا شك فإن المحنة التي مر بها المسلمون في الأندلس قد أثارت الشعراء والكتاب، وكتبت نتيجة لذلك القصائد الطوال التي تبكي بحسرة ذلك الفردوس المفقود، والحالة التي وصل إليها المسلمون ومن بين تلك القصائد قصيدة ابن الطيب أبو البقاء الرندي، التي قالها إثر النكبة التي لم تبق إلا مملكة غرناطة، راجع المقري ـ أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، مطبعة بولاق مصر المحمية 1942م، ط1، ص47.

الأندلس الإسلام والإيمان، فعلى ذلك فليبك الباكون وينتحب المنتحبون، (إنا لله وإنا إليه راجعون) فإن ذلك كان في الكتاب مسطوراً وكان أمر الله قدراً مقدوراً»[19] ولم يتركوا وشأنهم حتى بعد رحيلهم، حيث تعرضوا إلى السلب والنهب ومطاردة النصارى لهم، فماذا يكون رد فعل هؤلاء وإخوانهم في الدين؟ بالتأكيد لن يكون ردهم التلويح بغصن الزيتون في الوقت الذي يحاول عدوهم القضاء عليهم بمختلف الوسائل.

وفي زحمة هذه الأحداث المأسوية التي كان يمر بها المسلمون في الحوض الغربي للمتوسط، شعروا وبكل مرارة بأنهم عاجزون عن نصرة إخوانهم في الأندلس، لا بل عاجزون حتى عن الدفاع عن أرضهم وعرضهم، وما أحوجهم إلى قوة بحرية تدافع عنهم وتأخذ بثأرهم من أعدائهم أينما وجدوا، فالبحر بخلجانه وتعرجاته وصخور شواطئه ودروبه الملتوية، كان يهيّئ الفرصة الأكثر ملاءمة لتحقيق ذلك من الحرب البرية، فكان هذا الإحساس بداية لميلاد البحرية المغربية الحديثة، بالإضافة إلى عوامل أخرى أسهمت في تكوينها وازدهارها، فما هي هذه العوامل؟

ب: عوامل تطور البحرية الغربية الحديثة وازدهارها

ترتبط نشأة البحرية المغربية الحديثة بعدة عوامل أسهم بعضها مع بعضها الآخر في تكوينها وازدهارها في العصر الحديث: منها:

1 ـ الموقع الجغرافي:

يمتد الساحل المغربي من برقة[20] في الشرق وحتى الميحط الأطلسي في الغرب عبر الشمال الإفريقي، وبمسافة تزيد عن ألفي ميل تقريباً، يضاف إليها

---

(19) الخطيب نشأة الأصول الدينية للحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ندوة الدين والتدافع الحضاري، مالطا 15ـ 20 نوفمبر 1988م، منشورات رسالة الجهاد ط1989 1م، ص 119 ـ 139.

(20) يتفق معظم المؤرخين المسلمين على أن حدود المغرب العربي تبتدىء بعد الإسكندرية وحتى المحيط الأطلسي. راجع ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الدار العربية للكتاب ليبيا تونس ط3، 1983م، ج3 ص5.

الساحل الغربي لمراكش الواقع على المحيط الأطلسي وما يتخلل هذه الشواطىء من خلجان وتعرجات هي بمنزلة موانىء طبيعية صالحة لرسو السفن، إلى جانب وجود عدد من دور صناعة السفن منذ وقت مبكر في كل من طرابلس والمهدية[21]، على سبيل المثال، كما توجد ببلاد المغرب بعض المواد الخام اللازمة لمثل هذه الصناعة كالأخشاب في غابات جبال أطلس. وتتصل منطقة المغرب بأوروبا عن طريق مضيق جبل طارق، وتقترب منها عند مضيق رأس بونه الفاصل بين صقلية الإيطالية وتونس الإسلامية، الأمر الذي جعلها معبراً لتجارة إفريقية إلى أوروبا وبالعكس، إلى جانب اعتدال مناخها ووفرة حاصلاتها الزراعية كالحبوب وزيت الزيتون والتمور وغيرها.

وهكذا اكتسبت بلاد المغرب أهمية استراتيجية حتى في عهودها السابقة، وخاصة خلال فترة ازدهار بحريتها في عهد الأغالبة والعبيدين والمرابطين ثم الموحدين، هذا الازدهار الذي يمثل الأساس في استعادة البحرية المغربية لنشاطها القديم في العصر الحديث، تلك الأهمية التي جعلت النشاط التجاري مستمراً حتى في ظل السيطرة الأوروبية على البحر المتوسط في نهاية العصور الوسطى، حيث كانت هناك مواعيد منظمة لتسيير الرحلات التجارية عبر البحر المتوسط من المدن الإيطالية إلى موانىء شمال إفريقية، وكان يطلق عليها اسم موده[22] لنقل مختلف السلع من موانىء جنوب وشمال المتوسط.

2 ـ طرد المسلمين من الأندلس:

بعد عشر سنوات من سقوط غرناطة آخر إمارة إسلامية في الأندلس صدر أول مرسوم في سنة905هـ/ الموافق 20/ 7/ 1501م). بطرد الآلاف من المسلمين من إسبانيا ومنعهم من البقاء بها[23] بعد إقامة استمرت حوالي ثمانية قرون، شهدت البلاد خلالها حضارة مزدهرة، شملت جوانب متعددة في مختلف

(21) لويس أريشيبالد القوى البحرية والتجارية ص316.

(22) منقروني كامللو ـ إيطاليا في الأحداث البحرية الطرابلسية ـ تعريب عمر الباروني، منشورات مركز جهاد الليبيين ـ طرابلس 1988م. ص44.

(23) عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، مصدر مشار إليه ص324.

مجالات الحياة، وكان من نتائج هذا العمل الخطير وغير الإنساني فقدان المسلمين لأموالهم وبيوتهم وأرضهم، حيث لم يحملوا معهم إلى منفاهم إلا حقداً دفيناً، ورغبة جامحة في الانتقام من الإسبان الذين طردوهم بدون شفقة ولا رحمة، وأملهم في العودة إلى بيوتهم، ولا شك في أنّ الإسبان كانوا مدركين لخطورة هذا العمل الذي قاموا به، ولهذا نراهم يحاولون إبعاد هذا الشر عنهم قدر الإمكان من خلال تحديد الدولة العثمانية باسياد الصغرى ـ تركيا الحالية ـ وجهة لهؤلاء المطرودين مانعاً إياهم من الدخول إلى شمال إفريقية تحت طائلة الإعدام[24]. إلا أن عدداً كبيراً منهم استطاع الوصول إلى طرابلس وتونس الجزائر ومراكش، حيث أسسوا واستوطنوا في العديد من المدن على الساحل المغربي من درنه[25] في الشرق وحتى سلا في الغرب، وبلغت هذه الهجرات ذروتها عندما اعتلى عرش إسبانيا فليب الثالث (PHILPPE III) (1598 ـ 1621م). الذي أصدر قراره النهائي بطرد جميع مسلمي الأندلس الموجودين على التراب الإسباني بمافي ذلك المسلمون الذين هم من أصل إسباني في جمادي الثاني (1018هـ(22 سبتمبر 1609م)[26]، وما أعقب ذلك من محاكم التفتيش وديوان التحقيق (LAINQUISIGION) لاضطهاد وقهر الأندلسيين[27]، وبذلك فشل المخطط الذي رسمه ملوك إسبانيا في إبعادهم عن المغرب تجنباً للأخطار الناتجة عنه، ووقع ما كان يخشاه هؤلاء النصارى حيث أعطت الهجرات الأندلسية دفعاً جديداً لمختلف الأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمغرب وخاصة في تونس، ويقول ابن أبي دينار عن أحداث سنة (1017هـ/ 1608م) «وفي هذه السنة

---

(24) كراندرو، قراصنة سلا، مصدر مشار إليه ص14.

(25) مدينة درنه، مدينة جميلة على شاطىء البحر المتوسط تقع في الجزء الشرقي لإيالة طرابلس وتبعد عن مدينة طرابلس حوالي 1300ك.م وقد أسسها المهاجرون الأندلسيون سنة (1040هـ ـ 1640م) راجع الزاوي، الشيخ أحمد الطاهر، معجم البلدان الليبية، مكتبة النور طرابلس ليبيا 1968م، ص ص 130 ـ 132.

(26) عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مصدر مشار إليه ص ص 396 ـ 397.

(27) حول مهام ودور محاكم التفتيش وديوان التحقيق في تعذيب مسلمي الأندلس، راجع: عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مصدر مشار إليه، ص ص 328 ـ 348.

والتي تلتها جاءت الأندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب إسبانية وكانوا خلقاً كثيراً، فأوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعافهم على الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاؤوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها... وعمروا نحو عشرين بلداً...»[28]، كما وجد بعضهم في الجهاد البحري وسيلته في الانتقام، وفي نفس الوقت استرداد قيمة أموالهم الضائعة بطريقة أو بأخرى، الأمر الذي أعطى قوة جديدة وتطوراً متزايداً لهذا النشاط، فقد عوضت السفن الكبيرة والسريعة في وقت قصير السفن الحربية الصغيرة، وقد شاع استعمال الشراع إضافة إلى السفن التي تعتمد على التجديف مما زاد في مجال عمل البحرية المغربية، وأصبحت أكثر تطوراً من ذي قبل[29] إلى جانب تزويدها بالرجال ذوي الخبرة العالية في هذا المجال، وقد اشتهر من بين قيادتهم الرايس بلانكيون (BIANQULL) والرايس أحمد بو علي والرايس مراد الكبير وغيرهم[30]، ويعترف عدد كبير من المؤرخين الغربيين من أمثال روجي كراندرو (ROGER COINDREAU) [31] وبروديل[32] بأن طرد الموريسكين من الأندلس كان سبباً أساسياً في تزايد النشاط البحري أو (القرصنة) كما يسميها هؤلاء المؤرخون للمغرب في العصر الحديث.

3 ـ وصول غزاة البحر الأتراك إلى السواحل المغربية:

لقد تزامن الاحتلال الإسباني للساحل الشمالي من بلاد المغرب بين سنتي (1505 ـ 1511م) مع ظهور عدد من المجاهدين الأتراك، الأمر الذي أدى إلى تزايد النشاط البحري المغربي المتداعي في السابق، حيث اتخذ هؤلاء المجاهدون من الشواطىء المغربية منطلقاً لهجماتهم على المراكب المسيحية،

---

(28) ابن أبي دينار، محمد أبي القاسم الرعيني: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، طبعة المكتبة العتيقة، تونس 1387هـ، ص193.

(29) كراندرو، قراصنة سلا، مصدر مشار إليه ص16.

(30) عنان، محمد عبد الله، مصدر مشار إليه، ص388.

(31) كراندرو، قراصنة سلا، مصدر مشار إليه ص17.

(32) راجع حول هذا الموضوع بروديل في بحثه عن الإسبان والمغرب العربي، المجلة الإفريقية 1928م، نقلاً عن أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة، مصدر مشار إليه ص75.

إذ لم يكن في مقدورهم - في البداية على الأقل التصدي مباشرة للأساطيل القوية التي يمتلكها الإسبان والبرتغاليون في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وإنقاذ إخوانهم الموريسكين[33] من خطر الفناء والتنصير، يشاركهم في ذلك الكثير من إخوانهم المغاربة وبعض المهجرين أنفسهم.

وهكذا تبلورت فكرة الجهاد البحري والانتقام من الإسبان الذين طردوا المسلمين من الأندلس ويعملون على طردهم من إفريقية أيضاً حتى يتسنى لهم تحرير بيت المقدس من أيدي المسلمين (الكفار)، على حد زعمهم، واعتبرت عملية احتلال طرابلس سنة (916هـ/ 1510م)[34] بداية ناجحة لتحقيق ذلك الحلم، فقد ابتهج النصارى كثيراً لهذا النصر الذي حققته إسبانيا وعمت الاحتفالات مختلف العواصم الأوروبية وخاصة في إسبانيا وإيطاليا، وبالتأكيد كان البابا يرتل صلوات الشكر للسيد المسيح وهو يستعرض الآلاف من الأسرى الطرابلسيين، الذين أخذوا بعد هذه العملية مباشرة ليتم بيعهم في أكبر أسواق النخاسة بالفورنو[35]، إلى حد أن أسعارهم قد انخفضت، وأصبح بإمكان السفن تغيير واستبدال الجدافين دون صعوبة[36] فهل هذه تعاليم المسيح؟

لقد تميز هؤلاء المجاهدون الجدد بالشجاعة والإقدام والخبرة الواسعة في ركوب البحر، الأمر الذي أسهم في تنظيم البحرية المغربية والرفع من مستواها، وأطلق المؤرخ الإيطالي سلفاتوري بونو (S. BONO) على هذه الفترة (1517 - 1580م) التي ظهر فيها الأتراك (مرحلة البطولة)، بينما أطلق على الفترة الممتدة من 1580م وحتى منتصف القرن السابع عشر بالمرحلة التجارية، ثم المرحلة

---

(33) يطلق لفظ الموريسكيون على العرب المتنصرين.

(34) حول عملية الاحتلال الإسباني لمدينة طرابلس (1510م - 1530م) ومقاومة الطرابلسيين له، راجع، أبو عجيلة، محمد الهادي: - النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القرمالية (1711 - 1835م)، وأثره على علاقاتها بالدول الأجنبية، رسالة ماجستير إشراف د. مصطفى رمضان، مقدمة إلى كلية اللغة العربية جامعة الأزهر الشريف، مجازه، ولم تنشر، ص ص 20 - 37.

(35) الفورنو: - إحدى المدن. الإيطالية وميناء هام على ساحل البحر المتوسط بتوسكانا إحدى الدويلات الإيطالية قبل الوحدة 1870م وكانت ترتبط بعلاقات تجارية واسعة مع إيالات الشمال الإفريقي.

(36) Moulay. Belhamissi. Histoire. De. La. Marine lagerienne 1516 - 1830 Entreprise. National. Du livre. Alger 1986 p21.

الثالثة والأخيرة التي تنتهي في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، حيث انتهت ما يسميه بالقرصنة البربرية[37]. غير أن روجي كراندرو يعتبر فترة هؤلاء المجاهدين هي الفترة المنظمة (القرصنة البربرية)[38]، التي تنتهي في سنة 1571م أي عند هزيمة الأسطول العثماني في موقعة (لبيانتو).

والحقيقة لا يمكن مجاراة هؤلاء المؤرخين الغربيين في وصف هؤلاء المجاهدين والمغاربة عموماً بالقراصنة، بسبب الحرب غير المعلنة ظاهرياًبين المسلمين والنصارى، التي هي في الحقيقة حرب دائمة ومستمرة إلا في حالة اعتناق الإسلام أو دفع الجزية، وقد أكد ذلك القرآن الكريم في العديد من المناسبات منها قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة سبأ، الآية: 28]، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة الأعراف، الآية: 158] وجاء قوله مخاطباً الرسول الكريم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: 107] ولا يعني ذلك فرض الإسلام بالقوة، بل هو اختيار ذاتي، فقد ذكر عز وجل ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [سورة البقرة، الآية: 256] مما يؤكد حرص الإسلام على مبدأ الحرية الدينية التي تمتع بها أهل الذمة ـ اليهود والنصارى ـ تحت راية الإسلام باعترافهم هم أنفسهم[39]، مقابل دفع الجزية وهي قيمة زهيدة قياساً بالزكاة التي فرضت على المسلمين، وإلى جانب ذلك إعفاؤهم من المشاركة في الحرب، وفي حالة عدم الاستجابة للإسلام أو دفع الجزية تأتي الحرب آخر الحلول، وهي علاج لداء عضال قد يستهدف الإسلام والمسلمين فقال عز وجل ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية: 29] ومن خلال ما تقدم تبدو الحرب بين الإسلام والمسيحية أمراً لا مفر منه بسبب

---

(37) Bono. S.Lcorsari. Babareschi. Torino. Eri 1946 pp208 - 211.

(38) كراندرو، قراصنة سلا، مصدر مشار إليه، ص23.

(39) أبو خليل، د. شوقي: تسامح الإسلام وتعصب خصومه، منشورات مؤسسة مي للطباعة والتوزيع ط1، 1990م، ص ص 221ـ 228.

عالمية الإسلام - في نظر المسلمين على الأقل - وعدم اعتراف المسيحية (المحرفة) به أصلاً، وهي تسعى جاهدة من أجل القضاء عليه، ولا تخرج جهود إسبانيا في هذه المرحلة ومباركة البابا لها عن ذلك، وعليه يمكن استخدام مصطلح غزاة البحر على المجاهدين موريسكيين وأتراكاً ومغاربة في العصر الحديث تيمناً بمغازي الرسول الكريم ﷺ، فقد جاء في كتاب المغازي - وهي جمع مغزي - «واصل الغزو القصد يقال: - غزاه غزواً، إذا طلبه وقصده، وغزا العدو سار إلى قتالهم وانتهابهم»[40]، وقد استخدم سلاطين آل عثمان لقب (الغازي) منذ أيام جدهم الثاني (أورخان)[41]. وقد استخدم المؤرخون المغاربة لفظ المراكب الجهادية على السفن القائمة بالغزو ومن بينهم، على سبيل المثال لا الحصر، ابن غلبون الطرابلسي[42]، وابن عبد العزيز التونسي صاحب كتاب الياشي[43]. والحاج أحمد الشريف الزهار الجزائري[44] ومحمد الضعيف الرباطي المراكشي[45].

وعلى أية أحال فإن وصول هؤلاء المجاهدين الأتراك إلى السواحل المغربية قد ساعد في التصدي والوقوف في وجه المسيحيين حتى جاءت النجدة التركية وطرد الإسبان، ثم تقسيم المغرب وبداية النشاط البحري المستقل وهكذا أسهمت تلك العوامل في بروز النشاط البحري للمغرب واستمراره طوال العصر الحديث وحتى احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 ويحول المغاربه من موقف الهجوم إلى الدفاع.

---

(40) لاشين، د. موسى شاهين وعبد العال، د. أحمد عبد العال، المنهل الحديث في شرح الحديث، دون ذكر بيانات الطبع ط3 ص127.

(41) روسو، البارون الفونصو: الحوليات التونسية من الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، تعريب وتحقيق د. محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس - بنغازي - ليبيا ط2، 1992م، مقدمة التحقيق ص39.

(42) ابن غلبون، محمد بن عبد الله: التذكار فيمن ملك طرابلس وكان فيها من الأخيار، تصحيح وتعليق الطاهر الزاوي، مكتبة النور طرابلس ليبيا ط2، 1967م، ص143 وما بعدها.

(43) روسو، البارون الفونصو، مصدر مشار إليه، مقدمة التحقيق ص39.

(44) الزهار، أحمد الشريف: مذكرات الزهار، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1974م، ص25 وما بعدها.

(45) الضعيف، محمد بن عبد السلام: تاريخ الضعيف، تحقيق وتعليق أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط المغرب ط1، 1986م، ص24.